

بسم الله الرحمن الرحيم

حال الداعية مع القرآن

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن قليلاً من إعمال الفكر وإجالاته في هذه اللفظة (داعية) من شأنه أن يبعث تساؤلاً في النفس، ألا وهو: إلى أي شيء يدعو ذلك الموسوم بهذه الصفة التي بُني لفظها بناء المبالغة كما لا يخفى؟! أقول جواباً على ذلك: إنه يدعو إلى صراط الله المستقيم الذي رسمه لعباده، وأمرهم بسلوكه، وقد وضح معالمه وبين تفاصيله في كتابه الذي أنزله على نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- وهو القرآن، فهو الصراط المستقيم، وحبل الله المتين الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، من حكم به عدل، ومن قرأه أجز، ومن عمل به ودعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم.

وإذا كان الأمر على ما وصفت فإنه ينبغي أن يكون الاشتغال بهذا القرآن في أول سلم "أولويات" الداعية، وفي وسطه ومنتهاه، وذلك بأن يقدم حفظه وتلاوته وتفهمه وتدبره على كثير مما أولع به كثير من الناس مما يسمونه "علماء"، وقد يكون باطلاً من أصله أو قليل الجدوى والنفع، لا سيما كثير مما ابتلي به الناس في هذه السنين الأخيرة، بل إنه مقدم على طلب الحديث وغيره كما قرر ذلك جماعة من الأئمة، كشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، وهو الذي عليه العمل لدى السلف الصالح -رضي الله عنهم-، كما أخرج الخطيب في جامع (٤٢/١) عن يحيى بن يمان -رحمه الله- أنه كان إذا جاءه غلام أمرد استقرأه رأس سبعين من الأعراف، ورأس سبعين من يوسف، وأول الحديد، فإن قرأه حدثه.

وكان الأوزاعي -رحمه الله- إذا رأى في مجلسه حدثاً قال: يا غلام قرأت القرآن؟ فإن قال: نعم، قال: اقرأ: **{يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ}** [١١] سورة النساء، وإن قال: لا، قال: اذهب تعلم القرآن قبل أن تطلب العلم^(١).

والمقصود أن يجمع الداعية همته على تعلم كتاب الله تعالى، فيقبل عليه برغبة صادقة وحرص أكيد، **{وفي ذلك فليتنافس المتنافسون}** [٢٦] سورة المطففين، فيكون مقتدياً بسلفنا الصالح -رضي الله عنهم-، كما حدث محمد بن علي السلمي -رحمه الله- قال: قمت ليلة سحراً لأخذ النوبة على ابن الأخرم، فوجدت قد سبقني ثلاثون قارئاً، وقال: لم تدركني النوبة إلى العصر.

فإذا تحقق له حفظه وإتقانه جعل بعض اشتغاله في إقرائه وتعليمه؛ ليدخل بذلك في زمرة الأخيار، فيكون قد جمع بين تعلم القرآن وتعليمه، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **{خيركم من تعلم القرآن وعلمه}**^(٢)، وبذلك تكون أوقاته معمورة لأجل الأعمال وأرفعها فلا يستخسر وقتاً يقضيه في ذلك التعلم والتعليم، والله قد وصف كتابه بأنه (عزيز)، ومن عزته أن لا يبقى في القلوب المعرضة عنه، ومن نظر في أخبار القراء رأى

^١ - الجامع لأخلاق الراوي ٤٢/١.

^٢ - رواه البخاري.

العجب، وقد كان بعضهم يجلس لذلك من بعد صلاة الفجر إلى الظهر، كما في ترجمة مقري دمشق أبي الحسن محمد بن النصر، وغيره كثير كسبيع بن المسلم (ت ٥٠٨) -رحمهم الله أجمعين-^(١)، وكان هذا ديدنهم بلا فتور أو انقطاع حتى إن الواحد منهم ربما أقرأ ستين سنة، كما هو مسطور في تراجم بعضهم كبكار بن أحمد المقرئ (ت ٣٥٣)^(٢)، ومحمد بن أبي المعالي، حتى لقن الأبناء والأحفاد^(٣)، فكان يتخرج على يد الواحد منهم المئات -بل أكثر- من حفظة كتاب الله تعالى، كما نجد في ترجمة ركن الدين إلياس (ت ٦٧٣) حيث ختم عليه أكثر من ألف نفس.*

كل ذلك يفعله الداعية قربه إلى الله تعالى وابتغاء مرضاته ورجاء ما عنده دون تطلع إلى ما في أيدي الناس، فيكون بذلك قد تعجل أجره.

وقد دخل سفيان وابن المبارك على أم حسان الكوفية -وكانت ذات اجتهاد وعبادة- فلم يروا في بيتها شيئاً سوى قطعة حصير خَلِقَ، فقال لها الثوري: لو كتبت رقعة إلى بعض أعمامك فيغيروا من سوء حالك؟! فقالت: يا سفيان: قد كنت في عيني أعظم، وفي قلبي أكبر منذ ساعتك هذه، إني ما أسأل الدنيا من يقدر عليها ويملكها ويحكم فيها، فكيف أسأل من لا يقدر عليها ولا يقضي ولا يحكم فيها؟ يا سفيان، والله ما أحب أن يأتي عليّ وقت وأنا متشاغلة فيه عن الله تعالى بغير الله، فبكى سفيان^(٤).

١ - انظر معرفة القراء الكبار ٤٦٣/١.

٢ - السابق ٣٠٦/١.

٣ - السابق ٥٦٩/٢.

* وقد حفظ لنا التاريخ نماذج مشرقة من النساء اللاتي أولين كتاب الله تعالى عناية فائقة، حتى بلغن المقامات العالية في الإتقان والضببط، فمن ذلك:

١ - بيرم بنت أحمد المالكية حيث كانت تقرأ بالعشر وتعظ النساء، كما حفظت العمدة والأربعين النووية، والشاطبيتين وغير ذلك.
٢ - خديجة بنت أحمد من أهل فاس، كانت حافظة عارفة بكثير من القراءات، كقراءة ورش وقالون ومكي، مع كثرة العبادة والاشتغال بما يعني.

٣ - خديجة بنت هارون الدوكالية من أهل المغرب، كانت تحفظ الشاطبية وتقرأ بالسبع، وحجت خمسة عشرة حجة.

٤ - حفصة بن سيرين أخت محمد بن سيرين، كانت من أهل الفقه والزهد والعبادة، حتى قال عنها إياس بن معاوية: ما أدركت أحداً أفضله على حفصة بنت سيرين، قرأت القرآن الكريم وهي بنت ثنتي عشرة سنة، فذكروا له الحسن وابن سيرين، فقال: أما أنا فما أفضل عليها أحداً، وكان أخوها محمد إذا أشكل عليه شيء من القرآن قال: اذهبوا فسلوا حفصة كيف تقرأ، وقد قيل: إنها مكثت في مصلاها ثلاثين سنة لا تخرج إلا لقاتلة أو قضاء حاجة، وذكر أنها اشترت جارية، فقيل للجارية: كيف رأيت مولاتك؟ فقالت: إنها امرأة سالحة، إلا أنها أنبت ذنباً عظيماً فهي الليل كله تبكي وتصلي.

٥ - سلمى بنت محمد بن الجزري حفظت القرآن، ومقدمة التجويد، ومقدمة النحو، وطيبة النشر، وقرأت بالعشر، وبلغت الغاية في الإتقان بشهادة أبيها شيخ القراء في وقته، وتعلمت العروض، وكتبت الخط الجيد، ونظمت بالعربية والفارسية، وقرأت الحديث.

٦ - عائشة بنت إبراهيم الدمشقية زوجة الحافظ أبي الحجاج المزني الإمام المعروف، صاحب تهذيب الكمال وغيره، كانت حافظة مقرئة أقرأت كثيراً من النساء، وختمت عليها، كانت كثيرة العبادة، زاهدة في الدنيا متقللة منها.

٧ - عائشة بنت عمران المنوبية من أهل تونس، كانت قارئة حافظة سالحة زاهدة، وكانت تغزل الصوف وتقتات منه، قيل: إنها ختمت القرآن مرة، وكانت لا تدخر شيئاً من قوتها، بل تتصدق بما فضل عن حاجتها، وكان آخر ما سُمع منها عند موتها: **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّالِحِينَ**

اتَّقُوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ [سورة النحل] (١٢٨).

٤ - صفة الصفة ٩١/٢.

وجاء في ترجمة محمد بن أبي محمد بن أبي المعالي -الذي أقرأ ستين سنة- أنه كان يُقرئ احتساباً لله تعالى ولا يأخذ من أحد شيئاً، ويأكل من كسب يده^(١).

إذ الشأن كما قال الفضيل -رحمه الله-: ينبغي لحامل القرآن أن لا تكون له حاجة إلى أحد من الخلق -إلى الخليفة فمن دونه- وينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه^(٢).

وقد أنكر حذيفة المرعشي على يوسف بن أسباط حيث وضع له بائع اللبن بعض الثمن لكونه من أهل القرآن^(٣).

وهكذا يكون صاحب القرآن والداعية إلى الله تعالى مع احتسابه وزهده مدركاً لعظم المسؤولية المنوطة به، وذلك أن حامل القرآن -كما قال الفضيل- حامل راية الإسلام، فلا ينبغي له أن يلغو مع من يلغو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلهو مع من يلهو^(٤)، وإنما يجعل القرآن ربيع قلبه فيتخلق بأخلاقه، فتكون التقوى صفة راسخة له، والورع حاجزاً بينه وبين كل مردول من الأقوال والأعمال، فيكون مقبلاً على شأنه، حافظاً للسان، غير مشتغل بما لا يعنيه منقياً قلبه من كل دنس؛ ليكون محلاً صالحاً لفهم القرآن.

وقد قال شيخ الإسلام وغيره تعليقاً على قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: **((إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا صورة))**، وكذلك القلوب إذا كانت تحمل أخلاق الكلاب فإن الملائكة لا تدخلها بالمعاني الطيبة. وبالجملة فإن الداعية إلى الصراط المستقيم إنما يكون خلقه القرآن، فيظهر ذلك في حاله مع نفسه، ومع ربه، ومع إخوانه المؤمنين^(٥).

1 - معرفة القراء الكبار ٥٦٩/٢.

2 - أخلاق حملة القرآن ص ٤٣.

3 - أخلاق حملة القرآن للأجري ص ٤٣.

4 - السابق ص ٤٣.

5 - أطلال الأجري في الكلام على سمات حامل القرآن فراجعها ص ٢٤-٣٢.